كاتبة وأكاديمية لبنانية للوفاق:

الثقافة في زمن الحرب حياةٌ ومقاومة

الوفاق/ خاص
عبير شمص

يُقال إنه حين تشتعل الحرب في أي بلد يخفت وهج الوسط الثقافي. إذ يُلاحظ أن الأنشطة والفعاليات والإصدارات التي تتعاطى الشأن الفكري الإنساني تؤجّل تلقائياً، ففي الحرب تعلو أصوات المدافع والغارات وتتقدم حوادث الموت والجراح والدمار، فلا يترك ذلك مجالاً إلا لأعمال الدفاع وإنقاذ الأرواح ونزوح العائلات نحو مناطق آمنة. ولكن، هل يظل للثقافة حينها صوتٌ يتكلم برغم المعارك العسكرية حقًا؟ وكيف يلاحظ هذا الأمر؟ وللإجابة عن هذه الأسئلة حاورت صحيفة الوفاق الكاتبة والتربوية الأكاديمية نجوى الموسوي، وفيما يلي نص الحوار:

الثقافة عبارة عن عقيدة وأخلاق

تُعرّف الكاتبة الموسوي في بداية حديثها ماهية أساس الثقافة المقصودة هنا ومعانيها؛ إذ تتعدّد تعريفاتها التي تشرح أوجهها وتبيّن أحيانًا الساحات التي تشملها، فمن تعريفات الثقافة وفق فكر الإمام الخميني (قدس)، أنها: "عبارة عن العقيدة وانطباع كلّ إنسان عن واقعيّات وحقائق العالم والوجود وكذلك (هي) الأخلاق الفرديّة والأخلاق الاجتماعيّة".

وتتابع الأكاديمية والكاتبة الموسوي حديثها بالقول:" ولما كانت الثقافة ناشئة من عقيدة ومترجمة في واقعيات فإن لها خصائص لا بأس بذكرها منها: أنها سلوك مكتسب ومنها أيضا التميز والاستقلال والتراكم والإنتقال والتركيب والتوافق والتكيّف والذيوع والانتشار والثبات والتغير والتكامل والاستمرار، وهذه الخصائص كلها لا بد أن تجد مسارات لها في الحياة العملية وفي عدة ظروف، وهذا يشير إلى ما يراه المفكر "الفريد فيبر" إذ يعتقد أن الثقافة "تدخل جميع مخططات الحياة التي تتكون على مدى التاريخ بما في ذلك المخططات الضمنية والصريحة والعقلية واللاعقلية وهي توجد في أي وقت كموجات لسلوك الناس عند الحاجة".

الثقافة وبناء شخصية الفرد في المجتمع

تؤكد الكاتبة الموسوي بوجود رابط بين هذه التعريفات للثقافة وبناء شخصية الفرد في المجتمع ، وذلك لأن الإنسان كيانٌ ذو أبعاد متعددة في جوانب أربعة كبرى هي: عقلية وجسمية واجتماعية وروحية، فإنه محتاج إلى عقيدة وأخلاق فردية واجتماعية تنمو مع نمو هذه الأبعاد فيه. وحين تتطوّر الأبعاد والعقيدة وتكبر، تُشكل الثقافة جزءاً من حركتها ونضوجها، وتدخل في إطار بناء القدرات والقوى الفكرية والروحية وغيرها، فالإنسان وفق الإمام الخميني (قدس): "يحتاج لأجل الحياة في هذا العالم إلى بعض القدرات الخاصة.. إذ يجب عليه الاستعانة بقوى العقل وهداية الأنبياء الدينية".

هل يُستنتج مما تقدم أن الثقافة تعدّ مرجعيةً للإنسان في مجالات فهمه للأمور والحياة وفلسفاتها؟ تتساءل الكاتبة الموسوي وتُجيب :" حتماً والثقافة هذه تظهر في سلوكه وفي تصرفاته أيضًا، ثم تشكل حالات من الوعي والتراث لاحقاً. فلكل بيئة أو مجتمع أو حضارة مكوّنات ثقافية تبدو بمثابة "حياة الإنسان الروحيّة، من العلوم والفنون والفلسفة والتشريع والأدب والفنّ" كما يقول الإمام المفكر السيد موسى الصدر".

الثقافة في الحرب ترفٌ فكري

يرى البعض أن الإبداع الثقافي وجمالياته تتراجع أثناء الحرب إذ لا مجال حينها لما يسمونه بالترف الفكري، تعلق الكاتبة الموسوي على هذه الرؤية بالقول:" إنهم بهذه الرؤية يعدون الثقافة نوعاً من الترف والرفاهية وليست في أساسيات شخصيات الإنسان والمجتمعات، لكن لا يجب أن ننسى أن هناك فئةً أخرى تجد أن الحرب هي المجال الأرحب والأهم لظهور آثار الثقافة إذا كانت الثقافة فعلاً ناتجاً عن فكر وعقيدة راسخة في أفراد المجتمع الإنساني وعناصره على اختلاف شرائحهم، ومن هنا نجد في الوسط الأدبي تلك النتاجات القصصية والشعرية والفكرية والمجتمعية التي تحفل بمشاهد الحرب والعبر منها."

وتؤكد الكاتبة الموسوي:" برغم اختلاف وجهات النظر يفرض الواقع نفسه، بأن الثقافة لها محل من الظهور حتى في الحروب والظروف الكبرى والمنعطفات والأحداث الاستثنائية وذلك لما تُمثله الثقافة من طاقات فكرية وروحية. وتلك الطاقات نجد لها مصاديق في المجتمعات كما تقدم في الكثير من التعريفات الفلسفية التي لا يُختلف فيها ومنها تعريف "ابن خلدون" الذي يُعبر عن الثقافة بأنها: "آداب الناس في أحوالهم في المعاش كالعمران والصنائع والفنون والدراية في مجالات الحياة اليومية، في حين تتشكل آداب الناس بالتعليم والاكتساب وإعمال الفكر". ووفق هذه المفاهيم يبدو من الطبيعي أن تظهر تجليات الثقافة في الأبعاد الإنسانية الأربعة: العقلية والروحية والجسمية والاجتماعية، وفي آثار تربيتها في الأفراد على المجتمعات التي يعيشون فيها وخصوصاً في الظروف الاستثنائيّة بشكلٍ حتمي."

صور المكونات الثقافية الفكرية والروحية

تُعدد الكاتبة الموسوي صور ثقافة الحياة التي تبرز عبر السلوك ومن أشكالها: ثقافة النصر والتضحيات والصبر والحياة، وفي مجال ثقافة الحياة تتنوّع العناوين كثيرًا، ومنها على سبيل المثال: حب الحياة وصناعة الحياة الكريمة، وتزيين الحياة بالعطاء الشريف، والتطوّع للخدمة لأجل صالح الحياة، وبناء الطفل كركيزة لمستقبل الحياة، وهذه العناوين لا تتراءى في الحرب بطريقة تلقينية أو دورات تعريفية أو بمنهاج من دروس وكتب في المدارس، بل تدفع الحربُ بالمخزون الثقافي للظهور فورًا ومباشرة، ما يدل على وجوده السابق بعمقٍ وثبات، ويدل أيضًا على استجابة هذا المخزون لصاحبه حين استدعائه وقت الحاجة، ذلك الوقت تتفتح فيه الأبواب لظهور القدرات والثقافات وطرقها المختلفة الملوّنة".

الثقافة مكوّن أساس يساهم في ظهور قابليات الإنسان المثقف وقدراته وشخصيّته الناشئة على حب الحياة العزيزة. وما مشاهد الحياة والعلم والتكيّف وحبّ الإفراح ومبادرات الإسعاد والإنقاذ وتقديم العون للمريض والجريح نفسيًا وجسمياً إلا دليلٌ على امتداد ثقافة الحياة والمقاومة لأجل سيادتها

نماذج ثقافة الحياة في بيئة المقاومة

تتجلى ثقافة الحياة في بيئة ومجتمع المقاومة المدافِعة في لبنان في وجه عدوان الاحتلال الصهيوني المتكرر عبر عدة مشاهد، وفق الكاتبة الموسوي، ومنها: مشاهد الأطفال النازحين الذين يقيم لهم المتطوعون والمبادرون أنشطةً تفريغ، ويعرفونهم بالقيم والمفاهيم كالحق والجمال والتحمل وتحويل التهديد إلى فرصة وذلك عبر ممارسة الألعاب والهوايات المفرحة، فهذا مثال يُعبر عن ثقافة العمل والحيوية وضخ الحياة، كما يعبر عن مدى رغبة القائمين بهذه الأنشطة في تفعيل الطاقة الإيجابية. وكذلك مشاهد صناعة الفن الجميل كالرسم والكتابة والنحت والمهارات اليدوية حتى في أماكن النزوح ومراكز الإيواء، وهذا يدل على الدافعية الإيجابية نحو حياة مؤنسة تحرك العواطف الجميلة والنبيلة من الإنسان تجاه أخيه الإنسان، ومشاهد الزواج وعقد القران بين شاب وشابة حتى في داخل المستشفيات، ما يدلّ على تحدي الموت من جهة ويدل من جهة ثانية برغم الدمار والقتل والجراح على قرارات مصيرية في بناء بيوت جديدة وأُسر جديدة تقدم المستقبل المشرق على الاستسلام للماضي المؤسف. وكذلك تُعبر مشاهد طلب العلم وممارسة الدراسة الأكاديمية لطلاب لبنان وفق نظام تعليمي خاص يراعي ظروف الحرب، فعلى الرغم من الملاحظات السلبية حول هذه القضية إلا أن طلب العلم من قبل مئات الآلاف من الأجيال إنما يدل على ثقافة حب الحياة واستمرارها".

وتتابع الكاتبة الموسوي حديثها:"يصبح واضحًا وجودُ الفعل الثقافي بقوة في الحروب وإن تراجعت نسبة النظريات والكلام الثقافي لصالح العمل والتطبيق، فالثقافة (بهذا المعنى) تنبثق بمثابة مكوّن أساس، ساهم قبل الحرب ويساهم في الحرب وبعدها في ظهور قابليات الإنسان المثقف وقدراته وشخصيّته الناشئة على حب الحياة العزيزة، وما مشاهد الحياة والعلم والتكيّف وحبّ الإفراح ومبادرات الإسعاد والإنقاذ وتقديم العون للمريض والجريح نفسيّاً وجسمياً وغيرها الكثير إلا دليلٌ على امتداد ثقافة الحياة والمقاومة لأجل سيادتها".

تختم الكاتبة الموسوي حديثها بطرح تساؤل إضافي مفتوح: أفلا تتطلب ثقافة الحياة العزيزة الكريمة مخططات فكرية وأدبية وفنية تليق بمستوى الناهضين بها في المستقبل الزاهر بالنصر؟

● سيرة شهيد

الشهيدة معصومة كرباسي.. أول شهيدة على طريق القدس

الوفاق / ولدت الشهيدة معصومة كرباسي في مدينة شيراز عام ١٩٨٠، تخرجت من كلية الهندسة بجامعة شيراز قسم هندسة الحاسوب، وهي ناشطة ثقافية وإعلامية ومن النخب في مجال البرمجة في هذه الجامعة، تزوجت الشهيدة من زميلها اللبناني الدكتور رضا عواضة عام ٢٠٠٣م وذهبت معه إلى لبنان عام ٢٠٠٤ حيث انضموا إلى صفوف حزب الله في لبنان.

ناشطة ثقافية ومقاومة

نشأت الشهيدة معصومة كرباسي في أسرة متدينة، وكانت أمًا مخلصة لخمسة أطفال. على مدى سنوات كانت تُشارك في الهيئات والمجالس الثقافية والدينية بنظرة شعبية على قضايا العالم الإسلامي وأصبحت أسطورة المقاومة وحققت هدفها الذي طالما حلمت به. حصل رضا على درجة الماجستير في علوم الكمبيوتر في بيروت وجاء إلى طهران لمواصلة دراسته وحصل على درجة الدكتوراه من جامعة أمير كبير. لقد كان الشهيد أحد نخب الأمن السيبراني في حزب الله وحتى اللحظة الأخيرة ناضل مع حزب الله وبرفقة زوجته ضد الكيان الصهيوني الغاصب.

كانت تتمنى الشهادة

وقالت نرجس عباس آبادي، صديقة الشهيدة كرباسي عنها:" في عام ٢٠٠٦، عندما بدأت حرب تموز في لبنان، كانت معصومة قد جاءت لتوها إلى لبنان، وكانت أمنيتها أن تستشهد، وأصرت الشهيدة على البقاء في لبنان رغم إصرار عائلتها وأصدقائها على ضرورة توجهها إلى إيران، وقالت: "سأبقى هنا، وسأقاوم إلى جانب شعب لبنان، وإذا كان نصيبي الشهادة فساستشهد، لقد وفت بوعدها، وبقيت في لبنان حتى آخر يوم في تلك الحرب، وبالإضافة إلى تضحيتها بنفسها وزوجها، لم تكن مبالية بالتضحية بأطفالها الخمسة أيضًا في هذا الطريق المقدس، وكانت تقول دائمًا: "أطفالي مخلصون للسيد القائد".

صامدة مع الشعب اللبناني

وأضافت: كنت أرى معصومة في قراءة دعاء كميل كل ليلة جمعة، وآخر مرة رأيتها كانت قبل استشهاد ابراهيم عقيل، يومها لم تكن معصومة في مزاجها المعتاد، وكانت قلقة على الشعب اللبناني، وقالت: "الآن يجب على شعب لبنان أن يترك منزله مرة أخرى ويتشرد، تلك البيوت التي اجتهدوا من أجلها لمدة ١٨ عاماً، لكني أعلم أنهم أقوياء لدرجة أنه مهما حدث سيضحون بكل شيء فداء للسيد الشهيد حسن نصر الله".

سوياً حتى الشهادة

يوم السبت ١٩ أكتوبر /تشرين أول، قامت طائرة مسيرة صهيونية بملاحقة سيارة في مدينة جونية اللبنانية، كان ركابها هما الشهيدة وزوجها. وكانت السيارة تتحرك عندما أطلقت الطائرة الصهيونية بدون طيار صاروخاً باتجاهها، إلا أنه أصاب زاوية السيارة ولم يصب ركابها بأذى، ركن الشهيد رضا السيارة على جانب الطريق السريع، ثم نزل وأخذ بيد زوجته ليتجها سوياً إلى مكان بعيد عن المدنيين، فما كان من المسيرة الصهيونية إلا أن أطلقت صاروخاً نحوهما مما أدى إلى استشهادهما.

● كتب اجتماعية

"الطنطورية".. كيفية اقتلاع الفلسطينيين من أرضهم

في أجواء الحرب الصهيونية على فلسطين وبعدها على لبنان نستعيد رواية الطنطورية للروائية الكبيرة رضوى عاشور، باعتبارها رواية نزوح وتهجير بامتياز، تؤرّخ من خلالها عاشور قصة الاقتلاع من الأرض والتهجير، فإذا كان الاقتلاع من الأرض التي ولد فيها الإنسان بمثابة الكارثة الإنسانية بكلّ المقاييس، فإن النزوح والتهجير القسري بما ينطوي عليه من معاناة نفسية واجتماعية واقتصادية لا يقلّ وجعاً وألماً بسبب المشكلات الطارئة الناشئة عن أوضاع مستجدّة مفروضة على النازحين من دون إرادة منهم.

بلغة شعرية انسيابية يتدفّق السرد وتتوزّع تفاصيله على كامل النص مستحضراً معاناة الشعب الفلسطيني الذي شُرّد عن أرضه بعد سلسلة مذابح قام بها الاحتلال الصهيوني في دير ياسين، والطنطورة.

تتداخل في الرواية أحداث ووقائع التاريخ الفلسطيني وخيال الكاتبة، مثقلةً بعبء التغريبة الفلسطينية من عام ١٩٤٨ مروراً بكلّ حدث لامس شغاف هذه القضية من خلال شخصية "رقية الطنطورية" التي تُمثّل الشخصية الرئيسية والمحورية فيها، وهي امرأة بسيطة تحكي حياتها المليئة بالمآسي، مجسّدة شخصية المرأة الفلسطينية المناضلة التي تحاول الحفاظ على الهوية في الشتات، وتقدّم المرأة الفلسطينية من منظور نسوي بوصفها مقاومة بامتياز، فالمرأة هي بطلة التهجير الواقعية الأولى وهي تتحمّل أعباء النزوح والتنقّل من مكان إلى آخر.

لقد غدت رقية شخصية الرواية المحورية ابنة الشتات الأكثر قسوة، وشرعت تحكي قصة عالم المخيّمات المفروضة في لبنان: "أغلب نساء المخيم يحملن مفاتيح دورهن تماماً كما كانت تفعل أي. البعض كان يريه لي وهو يحكي عن القرية التي جاء منها. وأحياناً كنت ألمح طرف الحبل الذي يحيط بالرقبة وإن لم أرَ المفتاح، وأحياناً لا ألمحه ولا تُشير إليه السيدة ولكني أعرف أنه هناك تحت الثوب".

ولا تنسى رضوى عاشور أن تُذكّر بمصائر النازحين ونجاحاتهم في الاغتراب، فصادق ابن رقية يعيش حالة من الرفاهية، يدرس الطب ويسافر إلى أبو ظبي للحصول على المال، ويحاول قدر المستطاع أن يتحمّل مسؤولية أسرته ومعيشتها. وحسن ابن رقية يمثّل خيار العلم، فيسافر إلى مصر للالتحاق بالجامعة، ثم إلى كندا لإكمال دراساته العليا، يطلب حسن من أمه كتابة قصة الطنطورية كشاهدة على ماحدث فيها من جرائم. غير أن هذه النجاحات تخفي وراءها حزناً عميقاً على تفرّق الأسرة الفلسطينية وتشتّتها في المنافي القصيّة، فأسرة رقية لا تجد إلا جزيرة بيريوس للاحتفال بزواج ابنها حسن، بعد أن تعذّر لقاء الأسرة بسبب تشرذمها في مختلف بِقاع الأرض.